قياسا على الخطر المباشر الذي كانت تمثله الصهيونية .

ان « طبقة » لم تعط الاهمية الكافية في الدراسات الفلسطينية هي « طبقة » البدو ، الذي بلغ تعدادهم في فلسطين عام ١٩٣١ : ٦٦،٥٥٣ بدويا (كان عددهم ١٠٣،٠٠٠ في ١٩٢٢). ان هذه القوة التي شاركت مشاركة بارزة في ثورة ١٩٣٦ كانت قد لعبت دورا مهما في انتفاضة شهر آب ١٩٢٩ ولفتت نظر الحزب الشيوعي الفلسطيني في مؤتمره التاسع الذي سبقت الاشارة اليه . ان هؤلاء البدو الذين يشكلون ٣٥ بالمئة من السكان تقريبا « يجعلهم الجوع الدائم في حالة غضب يبقى دائما على حافة الانتفاضة المسلحة، ان اشتراكهم في انتفاضة آب يدلك على الدور الكبير الذي يمكن ان يلعبوه في تمرد ثوري للجماهير ، وفي الوقت نفسه يغدو من الواضح ان شيوخ وزعماء هذه القبائل يمكن ان يفسدوا بالمال ... والبدو يمدون بلا انقطاع جيش الفلاحين المحرومين من الارض وانصاف البروليتارية بايد وافواه جديدة»(٤٩).

في غضون ذلك كانت البورجوازية العربية المدينية الصغيرة والممزقة في حالة تخبط وضياع وتمزق ، وكانت سرعة تحول المجتمع الى الاقتصادالصناعي اليهودي تجري دون ان تتيح لهذه البورجوازية الناشئة ، ولا للاقطاعيين ، فرصة المشاركة بهذا التحول او الاستفادة منه ، ولذلك فانه لم يكن غريبا قط ان نرى بان معظم الزعماء الفلسطينيين الذين شهدوا امام لجنة « بيل » الملكية في ١٩٣٧ وكذلك امام اللجان التي سبقتها ، يصرفون وقتا طويلا في امتداح الاستعمار العثماني واطراء معاملته قياسا على معاملة الاستعمار البريطاني : فقد كانوا يشكلون آلة الباب العالي وذراع السلطان وجزءا لا يتجزأ من نظام الهيمنة والاستغلال والقمع ، وقد صرفهم الاستعمار البريطاني من دور الوكيل الاول ، لانه وجد وكيلا اكثر كفاءة واشد رسوخا وارقى تنظيما هو الحركة الصهيونية .

وهكذا جرى رسم افق الدور الذي كان على القيادات الاقطاعية — الاكليركية ان تلعبه في الاساس ، « النضال » من اجل موقع افضل في النظام الاستعماري ، ولكنها لم تكن لتستطيع ان تخوض ذلك « النضال » دون ان ترص وراءها صفوف الطبقات التي كانت تتعطش لطرد القهر القومي المزدوج ، والقهر الطبقي المزدوج ، عن صدرها ، وكي تنجح في ذلك رسمت لنفسهابرنامجا اكثر تقدما من طاقتها ، واستمارت شعارات الجماهير التي لم تكن لتستطيع ولا ترغب في دفعها الى مداها ، وسلكت اشكالا في النضال ليست من طبيعتها . وبالطبع لم يكن لهذه القيادات مطلق الحرية في التصرف ، كما يحب الكثير ان يوحوا ، بل كانت تتعرض لجملة الضغوط التي كانت تحرك الاحداث ولتصاعد التناقضات واحتدامها ، ولجملة التأثيرات التي مررنا عليها ، وذلك يفسر التناقضات الجزئية التي كانت احيانا تقوم بينها وبين الانظمة العربية المحيطة بفلسطين والتي هي شريكة طبقية لها ، وكذلك يفسر احلافها الواسعة النطاق داخل البنية الطبقية في فلسطين .

المثقفون

بعد ١٣ سنة من الاحتلال البريطاني لفلسطين ، (اي في ١٩٣٠) يعترف مدير المعارف بتقريره : « لم تتكفل الحكومة منذ الاحتلال حتى اليوم بنفقات كافية لبناء اية مدرسة في البلاد » وفي ١٩٣٥رفضت الحكومة ٤١ بالمئة من طلبات الالتحاق بالمدارس التي قدمها عرب . وفي ٨٠٠ قرية عربية كانت موجودة في فلسطين كان هناك ١٥ مدرسة للبنات فقط و٢٦٩ للصبيان ، ووصلت ١٥ فتاة قروية فقط الى الصف السابع الابتدائي . وكان هنالك ٥١٧ قرية عربية لا مدارس فيها للذكور ولا للاناث ، ولا توجد اية مدرسة ثانوية في القرى العربية وبالاضافة لذلك كانت الحكومة : « تراقب الكتب وتعارض كل صلات ثقافية مع العالم العربي ، وهي لم تفعل شيئا لرفع المستوى الاجتماعي بين الفلاحين ...»(٥٠). في ١٩٣١ ، اذن ، كان المتعلمون بين مسلمي فلسطين ٢٥١ بالالف بين الذكور و ٣٣ بالالف بين الاناث و ٧١٥ بالالف بين الذكور المسيحيين و ٤٤١ بالالف بين الاناث . (وكانت النسبة ٩٣٤ بالالف بين ذكور اليهود و ٧٨٧ بين اناثهم!»(٥١). ومع ذلك فان هذه الارقام وان عكست الواقع التعليمي في الريف خصوصا فهي لا تعكس الواقع الثقافي في مجمل فلسطين ، هذا الواقع الذي لعب دورا طليعيا منذ بدء النهضة العربية في مطلع القرن العشرين . ففي الحقيقة كان عدد كبير من المطابع قد تأسس في فلسطين قبل الاحتلال البريطاني ، وفي المدة